الالتفات

ومن البديع الالتفاف، فمن ذلك ما كتب إلى الحسن بن عبد الله العسكري، أخبرنا محمد بن عبد الله الصولي، حدثني يحيى بن علي المنجم عن أبيه عن إسحاق بن إبراهيم قال: قال لي الأصمعي أتعرف التفاتات جرير؟ قلت: لا، فما هي؟ قال:

أتنسى إذ تودِّعُنا سليمى بفرعِ بشامةٍ؟ سُقي البشامُ

ومعنى الالتفاتات: أنه اعترض في الكلام قوله سقيت الغيث، ولو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتاً وكان الكلام منتظماً، وكان يقول "متى كان الخيام بذي طلوح أيتها الخيام"، فمتى خرج عن الكلام الأول ثم رجع إليه على وجه يلطف كان ذلك التفاتاً. ومثله قول النابغة الجعدي:

ألا زعمت بنو سعد بأني ألا كذبوا كبيرُ السنِّ فإني

ومثله قول كثير:

لو أن الباذلين وانت منهم رأوك تعلمو منك المطالا

وكقول ابن هرمة :

ليت حظي كلحظة العين منها وكثير منها القليل المهنـا

الرجوع

ومن الرجوع قول القائل:

بكل تداوينا فلم يُشْـفَ مـا بـنـا

على أن قُرب الدار خيرٌ من البعد

وقال الأعشى:

صرمت ولم أصرِمْكُمُ، وكصارم

أخٍ قد طوى كشحاً وآبَ ليذهبا

وكقول بشار:

لي حيلةٌ فيمـن ينـمُّ

وليس في الكذاب حِيلَه

من كان يخلُقُ ما يقو

لُ فحيلتي فيه قليلـه

وقال آخر:

وما بي انتصارٌ إن غدا الدهر ظالمي

عليَّ بلى إن كان من عندك النصرُ

التذييل

وباب آخر من البديع يسمى التذييل، وهو ضرب من التأكيد، وهو ضد ما قدمنا ذكره من الإشارة كقول أبي داود:

إذا ما عقدنـا لـه ذمةً

شددنا العِنَاجَ وعقدَ الكَرَب

وأخذه الحطيئة فقال:

فدعوا نَزَالِ فكنتَ أولَ نازلٍوعلام اركبُه اذا لم انزِ ل وكقول جرير :

لقد كنت فيها يا فرزدق تابعا

وريش الـذُنـابـي تــابـــع لـــلـــقـــوادم

التذييل في القرآن : ومثله قوله عز وجل: "إن فِرْعَونَ علا فِي الأرْضِ وجَعَلَ أهلَهَا شِيَعاً". إلى قوله: "إنه كان من المفسِدِينَ، ونُرِيدُ أن نَمُنَّ على الذينَ استضعفوا في الأرْضِ وَنجعَلَهُم أئمَّةَ ونجعَلَهُمُ الوارثين" إلى قوله: "كانوا خَاطئين".

الاستطراد

وباب من البديع يسمى الاستطراد، فمن ذلك ما كتب إليَّ الحسن بن عبد الله قال: أنشد أبو بكر بن دريد، قال: أنشدنا أبو حاتم عن أبي عبيدة لحسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه:

السَّمَواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْملائكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكبِرُونَ" كأنه كان المراد أن يجري بقول الأول إلى الأخبار عن أنَ كل شيء يسجد لله عز وجل، وإن كان ابتداء الكلام في أمر خاص.

التكرار

ومن البديع عندهم التكرار كقول الشاعر:

هلاّ سألت جموعَ كن

دةَ يومَ ولّوا أين أينا؟

وكقول الآخر:

وكانت فَزارة تَصلى بنا

فأولى فزارة أولى لها

التكرار في القرآن

ونظيره من القرآن: " فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسراً".

وكالتكرار في قوله: "قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ" وهذا فيه معنى زائد على التكرار لأنه يفيد الإخبار عن الغيب.

الاستثناء

ومن البديع عندهم ضرب من الاستثناء كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

بِهِنَّ فلولٌ من قراع الكتائبِ

وكقول النابغة الجعدي:

فتـــى كــمــلـــت أخـــلاقُـــهُ غـــير أنـــــه

جوادٌ فــلا يُبـــقـــي مـــن الــمـــال بـــاقـــــيا

فتى تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صديقَهعلى أن فيه ما يسوءُ الأعاديا وكقول الآخر:

حليمٌ إذا ما الحلمُ زّيَّنَ أهله

مع الـــحـــلـــم فـــي عـــين الـــعـــدو مـــهـــيبُ

وكقول أبي تمام:

تنصل ربها من غير جرمٍ

إليك سوى النصيحةِ والودادِ

ووجوه البديع كثيرة جداً فاقتصرنا على ذكر بعضها ونبهنا بذلك على مالم نذكر كراهة التطويل، فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع.

هل لأبواب البديع فائدة في معرفة الإعجاز؟

وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، وليس كذلك عندنا، لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها، وذلك كالشع الذي إذا عرف الإنسان طريقه صح منه التعمل له، وأمكنه نظمه. والوجوه التي نقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له، والتوصل إليه بحال.

ويبين ما قلنا أن كثيراُ من المحدثين قد تصنع لأبواب الصنعة، حتى حشى جميع شعره منها، و، واجتهد ان لا يفوته بيت إلا وهو يملأه من الصنعة . .

قوله:

لو لم يمتْ بين أطرافِ الرماحِ إذاً

لمات، إذ لم يمتْ، من شدةِ الحزَنَ
وكقوله:
خشنتِ عليه أختَ بني خشين
وكقوله:
ألا لا يمدّ الدهر كفاً بسيءٍ
إلى مجتدى نصر فتقطع من الزِند
وقال في وصف المطايا:
لو كان كلّفها "عبيد" حاجة
يوماً لزنَّى شدقماً وجديلا
وكقوله:
فضربت الشتاء في أخدعيه
ضربة غادرته عوداً رَكُوبا

غلو أبي تمام في الصنعة أعماه عن الصواب

فهذا وما أشبهه إنما يحدث من غلوه في محبة الصنعة، حتى يعميه عن وجه الصواب، وربما أسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها، حتى استثقل نظمه، واستوخم رصعه، وكان التكليف بارداً، والتصرف جامداً، وربما اتفق مع ذلك في كلامه النادر المليح، كما يتفق البارد القبيح.

صنعة البحتري أحسن من صنعة أبي تمام

فأما البحتري فإنه لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام، ويقل التصنع له، فإذا وقع في كلامه كان في الأكثر حسناً رشيقاً وظريفاً جميلاً، وتصنعه للمطابق كثير حسن، وتعمقه في وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة. والرغبة في السلامة، فلذلك يخرج سليماً من العيب في الأكثر.
وأما وقوف الألفاظ به عن تمام الحسنى، وقعود العبارات عن الغاية القصوى، فشيء لابد منه، وأمر لا محيص عنه، وكيف وقد وقف على من هو أجل منه، وأعظم قدراً، في هذه الصنعة، وأكبر في الطبقة: كامرىء القيس وزهير والنابغة، وإلى يومه؟ ونحن نبين تميز كلامهم، وانحطاط درجة قولهم، ونزول طبقة نظمهم، عن بديع نظم القرآن، في باب مفرد، يتصور به ذو الصنعة ما يجب تصوره، ويتحقق وجه الإعجاز فيه بمشيئة الله وعونه.

لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع

ثم رجع الكلام بنا إلى ما قدمناه، من أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر، ووصفوه به؛ وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلم، والتدرب به، والتصنع له، كقول الشعر، ورصف الخطب، وصناعة الرسالة، والحذق في البلاغة، وله طريق يسلك، ووجه يقصد، وسلم يرتقى فيه إليه، ومثال قد يقطع طالبة عليه.

قد يتعود الأديب على الصنعة فتصبح سليقة

فرب إنسان يتعود أن ينظم جميع كلامه شعراً، أو يتعود أن يكون جميع خطابه سجعاً، أو صنعة متصلة، لا يسقط من كلامه حرف، وقد يبادره به ما قد تعوده.
وأنت ترى أدباء زماننا يضيفون المحاسن في جزء، وكذلك يؤلفون أنواع البارع، ثم ينظرون فيه إذا أرادوا إنشاء قصيدة أو رسالة أو خطبة، فيحشون به كلامهم، ومن كان قد تدرب وتقدم في حفظ ذلك اشتغل عن هذا التصنيف، ولم يحتج إلى تكلف هذا التأليف، وكان ما أشرف عليه من هذا الشأن باسطاً من باع كلامه، وموشحاً بأنواع البديع ما يحاوله من قوله. وهذا طريق لا يتعذر وباب لا يمتنع، وكل يأخذ فيه مأخذاً، ويقف فيه موقفاً على قد ما معه من المعرفة، بحسب ما يمده من الطبع.

القرآن ليس له مثال يحتذي إليه

فأما شأو نظر القرآن فليس له مثال يحتذي إليه، ولا إمام يقتدي به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً، كما يتفق للشارع البيت النادر، والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب، والشيء القليل العجيب، وكما يلحق بعض كلامه بالوحشيات، ويضاف من قوله إلى الأوابد، لأن ما جرى هذا المجرى، ووقع هذا الموقع، فإنما يتفق للشاعر في لمع من شعره، وللكاتب في قليل من رسائله، وللخطيب في يسير من خطبه. ولو كان كل شعره نادراً، ومثلاً سائراً ومعنى بديعاً، ولفظاً رشيقاً، وكل كلامه مملوء من رونقه ومائه، ومملأ ببهجته وحسن روائه، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين، والمتردد بين الطرفين، ولا البارد المستثقل، والغث المستنكر: لم يبن الإعجاز في الكلام ولم يبن التفاوت العجيب بين النظام والنظام.

وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل، ومبهم قد يحتاج في بعض إلى تفسير، وسنذكر ذلك بمشيئة الله وعونه.

اعتراض ورد

ولكن قد يمكن أن يقال في البديع الذي حكيناه وأضفناه إليهم: إن ذلك باب من أبواب البراعة، وجنس من أجناس البلاغة، وأنه لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم، ولا وجه من وجوه فصاحاتهم، وإذا أورد هذا المورد ووضع هذا الموضع كان جديراً.وإنما لم نطلق القول إطلاقاً لأنا لا نجعل الإعجاز متعلقاً بهذه الوجوه الخاصة، ووقفاً عليها، ومضافاً إليها، وإن صح أن تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة، آخذة بحظها من الحسن والبهجة، متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستبشع، والتعمل المستشنع.

الفصل الثامن

في كيفية الوقوف على إعجاز القرآن

الأعاجم لا يعرفون إعجاز القرآن

إلا من خلال عجز العرب الفصحاء

قد بينا أنه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية، من العجم والترك وغيرهم، أن يعرفوا إعجاز القرآن، إلا أن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك، فإذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم قد تحدوا على أن يأتوا بمثله، وقرعوا على ترك الإتيان بمثله، ولم يأتوا به، تبينوا أنهم عاجزون عنه، وإذا عجز أهل اللسان فهم عنه أعجز.

العرب غير الفصحاء كالأعاجم

وكذلك نقول: إن من كان من أهل اللسان العربي، إلا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام، ووجوه تصرف اللغة، وما يعدونه فصيحاً بلغياً بارعاً من غيره، فهو كالأعجمي: في أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن إلا بمثل ما بينا أن يعرف به الفارسي الذي بدأنا بذكره، وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء.

من تناهى في معرفة اللسان العربي يدرك الإعجاز

فأما من كان قد تناهى في كعرفة اللسان العربي، ووقف على طرقها ومذاهبها، فهو يعرق القدر الذي ينتهي إليه وسع المتكلم من الفصاحة، ويعرف ما يخرج عن الوسع، ويتجاوز حدود القدرة، فليس يخفى عليه إعجاز القرآن، كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر وكما يميز بين الشعر الجيد والرديء والفصيح والبديع النادر والبارع والغريب. وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم، فيعرف الصيرفي من النقد ما يخفى على غيره، ويعرف البزاز من قيمة الثوب وجودته ما يخفى على غيره.

أهل الصنعة قد يختلفون في التقييم

وإن كان يبقى مع معرفة الشأن أمر آخر، وربما اختلفوا فيه. لأن من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين والقول الرصين. ومنهم من يختار الكلام الذي يروق ماؤه وتروع بهجته ورواؤه، ويسلس مأخذه ويسلم وجهه ومنفذه، ويكون قريب المتناول، غير عويص اللفظ، ولا غامض المعنى. كما يختار قوم ما يغمض معناه، ويغرب لفظه، ولا يختار ما سهل على اللسان، وسبق إلى البيان.

قد يفضل العارفون بالصنعة الصدق
وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصف زهيراً فقال: كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه، وقال لعبد بني الحسحاس حين أنشده:
كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا
أما إنه لو قلت مثل هذا لأجزتك عليه.
وروي أن جريراً سئل عن أحسن الشعر فقال؛ قوله:
إن الشقي الذي في النار منزلـه
والفوز فوز الذي ينجو من النار
كأنه فضَّله لصدق معناه.
منهم من يختار الغلو والإفراط
ومنهم من يختار الغلو في قول الشعر والإفراط فيه حتى ربما قالوا: أحسن الشعر أكذبه كقول النابغة:
يَقُدُّ السلوقِيَّ المضاعفَ نسجُه
ويوقد بالصفّاحِ نارَ الحباحبِ
وأكثرهم على مدح المتوسط بين المذهبين في الغلو والاقتصاد، وفي المتانة والسلاسة.
منهم من يختار من كان أكثر صنعة
ومنهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة، وألطف تعملاً وأن يخير الألفاظ الرشيقة للمعاني البديعة، والقوافي الواقعة... كمذهب البحتري، وعلى ما وصفه عن بعض الكتاب:
في نظام في البلاغة ما شكْ
امروٌ إنـه نـظـام فـريد
وبديع كأنه الزَّهَرُ الـضـا
حكُ في رونق الربيعِ الجديد
حُزنَ مستعمل الكلامَ اختياراً
وتجنبْنَ ظلمةَ الـتـعـقـيد
وركبن اللفظ القريبَ فأدرك
نَ غايةَ المـرادِ الـبـعـيد
ويرون أن من تعدى هذا كان سالكاً مسلكاً عامياً، ولم يروه شاعراً ولا مصيباً وفيما كتب الحسن بن عبد الله أو أبو أحمد العسكري قال: أخبرني محمد بن يحيى، قال: أخبرني عبد الله بن الحسن قال: قال لي البحتري: دعاني علي بن الجهم فمضيت إليه، فأفضنا في أشعار المحدثين، إلى أن ذكرنا شعر أشجع، فقال لي: إنه يُخْلي، وأعادها مرات، ولم أفهمها، وأنفت أن أسأله عن معناها. فلما انصرفت أفكرت في الكلمة، ونظرت في شعره فإذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولة، ليس فيها بيت رائع، وإذا هو يريد هذا بعينه، أن يعمل الأبيات فلا يصيب فيها ببيت نادر، كما أن الرامي إذا رمى برشقه فلم يصب بشيء قيل: قد أخلى.. قال: وكان علي بن الجهم أحسن الناس علماً بالشعر.
منهم من يميل إلى الرصين من الكلام
وقوم من أهل اللغة يميلون إلى الرصين من الكلام، الذي يجمع الغريب والمعاني، مثل أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر والأصمعي.
منهم من يختار الوحشي
ومنهم من يختار الوحشي من الشعر، كما اختار المفضل للمنصور من المفضليات. وقيل إنه اختار ذلك لميله إلى ذلك الفن.
الشعراء يخالفون اللغويين في تذوق الشعر
وذكر الحسن بن عبد الله أنه أخبره بعض الكتاب عن علي بن العباس قال: حضرت مع البحتري مجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: وقد سأل البحتري عن أبي نواس ومسلم بن الوليد أيهما

أشعر فقال البحتري أبو نواس أشعر. فقال عبد الله: إن أبا العباس ثعلباً لا يطابقك على قولك ويفضل مسلماً، فقال البحتري: ليس هذا من عمل ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله، إنما يعلم ذلك من وقع في سلك الشعر إلى مضايقه، وانتهى إلى ضروراته. فقال عبيد الله: وريت بك زنادي يا أبا عبادة، وقد وافق حكمك حكم أخيك بشار بن برد في جرير والفرزدق أيهما أشعر فقال: جرير أشعرهما، فقيل له بماذا؟ فقال: لأن جريراً يشتد إذا شاء، وليس كذلك الفرزدق على جرير، فقال: ليس هذا من عمل أولئك القوم، إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله، وفي الشعر ضروب لم يحسنها الفرزدق، ولقد ماتت النوار امرأته فناح عليها بقول جرير:

لولا الحياء لعادني استعبـار

ولزرت قبرك والحبيب يزار

وروي عن أبي عبيدة أنه قال للفرزدق: مالك لا تنسب كما ينسب جرير؟ فغاب حولاً ثم جاء فأنشد:

يا أخت ناجية بن سامة إنـنـي

أخشى عليك بني أن طلبوا دمي

اختيار أبي تمام

والأعدل في اختيار ما سلكه أبو تمام، من الجنس الذي جمعه في كتاب الحماسة، وما اختاره من الوحشيات، وذلك أنه تنكر المستنكر الوحشي، والمبتذل العامي، وأتى بالواسطة.

قد يكون الاختيار والتمييز لغرض

وهذه طريقة من ينصف في الاختيار، ولا يعدل به غرض يخص. لأن الذين اختاروا الغريب فإنما اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشتبه على غيرهم، وإظهار التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه، ولم يكن قصدهم جيد الأشعار لشيء يرجع إليها في أنفسها.

خير الكلام ما دل على المراد دون إفراط أو تفريط

ويبين هذا أن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس، وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن، ومستنكر المورد على النفس، حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الإفهام، أو يمتنع بتعويض معناه عن الإبانة. ويجب أن يتنكب ما كان عليه اللفظ مبتذل العبارة، ركيك المعنى، سفسافي الوضع، مجتلب التأسيس على غير أصل ممهد، ولا طريق موطد.

فضلت العربية لاعتدالها

وإنما فضلت العربية على غيرها لاعتدالها في الوضع، ولذلك وضع أصلها على أكثرها بالحروف المعتدلة، فقد أهملوا الألفاظ المستكرهة في نظمها، وأسقطوها من كلامهم، فجرى لسانهم على الأعدل.

أكثر كلا العرب من الثلاثي

ولذلك صار أكثر كلامهم من الثلاثي، لأنهم بدأوا بحرف وسكنوا على آخر وجعلوا حرفاً وصلة بين الحرفين، ليتم الابتداء والانتهاء على ذلك، والثنائي أقل، وكذلك الرباعي، والخماسي أقل، ولو كان كله ثنائياً لتكررت الحروف، ولو كان رباعياً أو خماسياً لكثرت الكلمات.

مكتبة مشكاة الإسلامية	
العنوان	تفسير التنوير والتحرير
المؤلف	ابن عاشور

نبذه عن الكتاب	اسم التفسير : "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد وتفسير الكتاب المجيد " ويعتبر في الجملة تفسيرا بلاغيا بيانا لغويا عقلانيا لايغفل المأثور ويهتم بالقراءات . وطريقة مؤلفه فيه أن يذكر مقطعا من السورة ثم يشرع في تفسيره مبتدئا بذكر المناسبة ثم لغويات المقطع ثم التفسير الإجمالي ويتعرض فيه للقراءات والفقهيات وغيرها. وهو يقدم عرضا تفصيليا لما في السورة ويتحدث عن ارتباط آياتها
تاريخ الإضافة	22/08/1424

حد الإعجاز.

وأما الإعجاز فلا يلزم أن يتحقق في كل آية من آي القرآن لأن التحدي إنما وقع بسورة مثل سور القرآن، وأقصر سورة ثلاث آيات فكل مقدار ينتظم من ثلاث آيات من القرآن يجب أن يكون مجموعه معجزا.

تنبيه أنا أقتصر في هذا التفسير على التعرض لاختلاف القراءات العشر المشهورة خاصة في أشهر روايات الراوين عن أصحابها لأنها متواترة، وإن كانت القراءات السبع قد امتازت على بقية القراءات بالشهرة بين المسلمين في أقطار الإسلام.

وأبني أول التفسير على قراءة نافع برواية عيسى ابن مينا المدني الملقب بقالون لأنها القراءة المدنية إماما وراويا ولأنها التي يقرأ بها معظم أهل تونس، ثم أذكر خلاف بقية القراء العشرة خاصة.

والقراءات التي يقرأ بها اليوم في بلاد الإسلام من هذه القراءات العشر، هي قراءة نافع برواية قالون في بعض القطر التونسي وبعض القطر المصري، وفي ليبيا وبرواية ورش في بعض القطر التونسي وبعض القطر المصري وفي جميع القطر الجزائري وجميع المغرب الأقصى، وما يتبعه من البلاد. والسودان .

صفحة : 35

وقراءة عاصم برواية حفص عنه في جميع الشرق من العراق والشام وغالب البلاد المصرية والهند وباكستان وتركيا والأفغان .

وبلغني أن قراءة أبي عمرو البصري يقرأ بها في السودان المجاور مصر.

@ 52 @ $ نبذة مما قال العلماء في إعجاز القرآن $ # اختلف الناس في إعجاز القرآن بم هو فقال قوم إن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات وإن العرب كلفت في ذلك ما لا يطاق

وفيه وقع عجزها # وقال قوم إن التحدي وقع بما في كتاب الله تعالى من الأنباء الصادقة والغيوب المسرودة # وهذان القولان إنما يرى العجز فيهما من قد تقررت الشريعة ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم في نفسه # وأما من هو في ظلمة كفره فإنما يتحدى فيما يبين له بينه وبين نفسه عجزه عنه وأن البشر لا يأتي بمثله ويتحقق مجيئه من قبل المتحدي وكفار العرب لم يمكنهم قط أن ينكروا أن رصف القرآن ونظمه وفصاحته متلقى من قبل محمد صلى الله عليه وسلم # فإذا تحديت إلى ذلك وعجزت فيه علم كل فصيح ضرورة أن هذا نبي يأتي بما ليس في قدرة البشر الإتيان به إلا أن يخص الله تعالى من يشاء من عباده # وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحذاق وهو الصحيح في نفسه أن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه # ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما وأحاط بالكلام كله علما فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطا # فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة وبهذا النظر يبطل قول من قال إن العرب كان من قدرتها أن تأتي بمثل القرآن فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه # والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد # ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام # ألا ترى ميز الجارية نفس الأعشى وميز الفرزدق نفس جرير من نفس ذي الرمة ونظر الأعرابي في قوله عز فحكم فقطع إلى كثير من الأمثلة اكتفيت بالإشارة إليها اختصارا

@ 53 @ # فصورة قيام الحجة بالقرآن على العرب أنه لما جاء محمد صلى الله عليه وسلم به وقال ^ فأتوا بسورة من مثله ^ البقرة 23 قال كل فصيح في نفسه وما بال هذا الكلام حتى لا آتي بمثله فلما تأمله وتدبره ميز منه ما ميز الوليد بن المغيرة حين قال والله ما هو بالشعر ولا هو بالكهانة ولا بالجنون وعرف كل فصيح بينه وبين نفسه أنه لا يقدر بشر على مثله فصح عنده أنه من عند الله تعالى # فمنهم من آمن وأذعن ومنهم من حسد كأبي جهل وغيره ففر إلى القتال ورضي بسفك الدم عجزا عن المعارضة حتى أظهر الله دينه ودخل جميعهم فيه ولم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الأرض قبيل من العرب يعلن كفره # وقامت الحجة على العالم بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة كما قامت الحجة في معجزة عيسى بالأطباء وفي معجزة موسى بالسحرة فإن الله تعالى إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره فكأن السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته وكذلك الطب في زمن عيسى والفصاحة في مدة محمد عليهم الصلاة والسلام

@ 54 @ & باب في الألفاظ التي يقتضي الإيجاز استعمالها في تفسير كتاب الله تعالى & # اعلم أن القصد إلى إيجاز العبارة قد يسوق المتكلم في التفسير إلى أن يقول خاطب الله بهذه الآية المؤمنين وشرف الله بالذكر الرجل المؤمن من آل فرعون وحكى الله تعالى عن أم موسى أنها قالت قصيه ووقف الله ذرية آدم على ربوبيته بقوله (ألست بربكم) الأعراف 172 ونحو هذا من إسناد أفعال إلى الله تعالى لم يأت إسنادها بتوقيف من الشرع # وقد استعمل هذه الطريقة المفسرون والمحدثون والفقهاء واستعملها أبو المعالي في الإرشاد وذكر بعض الأصوليين أنه لا يجوز أن يقال حكى الله ولا ما جرى مجراه # قال القاضي أبو محمد عبد الحق وهذا على تقرير هذه الصفة له وثبوتها مستعملة كسائر أوصافه تبارك وتعالى وأما إذا استعمل ذلك في سياق الكلام والمراد منه حكت الآية أو اللفظ فذلك استعمال عربي شائع وعليه مشى الناس وأنا أتحفظ منه في هذا التعليق جهدي لكني قدمت هذا الباب لما عسى أن أقع فيه نادرا واعتذارا عما وقع فيه

المفسرون من ذلك # وقد استعملت العرب أشياء في ذكر الله تعالى تنحمل على مجاز كلامها فمن ذلك قول أبي عامر يرتجز بالنبي صلى الله عليه وسلم فاغفر فداء لك ما اقتفينا # وقول أم سلمة فعزم الله لي في الحديث في موت أبي سلمة وإبدال الله لها منه رسول الله # ومن ذلك قولهم الله يدري كذا وكذا والدراية إنما هي التأتي للعلم بالشيء حتى يتيسر ذلك # قال أبو علي واحتج بعض أهل النظر على جواز هذا الإطلاق بقول الشاعر الجوهري # (لاهم لا أدري وأنت الداري %) + الرجز + # قال أبو علي وهذا لا ثبت فيه لأنه يجوز أن يكون من غلط الاعراب # قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه وكذلك أقول إن الطريقة كلها عربية لا يثبت للنظر المنخول شيء منها # وقد أنشد بعض البغداديين # (لا هم إن كنت الذي بعهدي % ولم تغيرك الأمور بعدي) + الرجز + # وقد قال العجاج فارتاح ربي وأراد رحمتي # وقال الآخر قد يصبح الله إمام الساري
@ 55 @ # وقال الآخر # (يا فقعسي لم أكلته لمة % لو خافك الله عليه حرمه) # وقال أوس # (أبني لبينى لا أحبكم % وجد الإله بكم كما أجد) # وقال الآخر # (وإن الله ذاق عقول تيم % فلما راء خفتها قلاها) # ومن هذا الاستعمال الذي يبنى الباب عليه قول سعد بن معاذ عرق الله وجهك في النار يقول هذا للرامي الذي رماه وقال خذها وأنا ابن العرقة # وفي هذه الأمثلة كفاية فيما نحوناه إذ النظير لذلك كثير موجود وإن خرج شيء من هذه على حذف مضاف فذلك متوجه في الاستعمال الذي قصدنا الاعتذار عنه والله المستعان